رحلات جليفر لسويفت

بقلم
السيدة صوفى عبدالله

١ — حياته

ولد يوناثان سويفت فى يوم ٣٠ من نوفمبر سنة ١٦٦٧ بمدينة دبلن بأيرلنده وكان جده لأبيه توماس سويفت قسيساً من أنصار الملكية ، أما جدته لأبيه فهى اليزابث درايدن عمة الشاعر المشهور . ووالده كان يسمى يوناثان سويفت أيضاً من موظفى الخاصة الملكية فى دبلن وقد مات قبل مولد كاتبنا بسبعة شهور تاركاً أسرته فى ظروف عصيبة جداً . وأم كاتبنا من ذوات قربى الشاعر المشهور هريك . وقد رحلت بوليدها اليتيم لتقيم مع أسرتها فى لايسستر ، وهناك عهدت إلى جدوين سويفت شقيق زوجها بتربية ابن أخيه الصغير وكفالته فبعثه عمه فى سن السادسة إلى مدرسة كلكنى التى يقال عنها إنها كانت أفضل المدارس من نوعها فى أيرلندة . وبعد ثمانى سنوات أخرى — أى عندما بلغ يوناثان الصغير الرابعة عشرة من عمره — أدخله القسم الداخلى بكلية الثالوث المقدس فى دبلن على أمل أن يتخرج فيها قسيساً . واستلفت يوناثان الصغير الأنظار فى هذه الكلية بتخلفه الشديد فى دراسته ، حتى لقد رسب رسوباً ملحوظاً فى مادتين من الثلاثة المواد التى تقدم للامتحان فيها كى يحصل على درجته الجامعية التى تؤهله للوعظ والكهنوت ! . . . ومع هذا كله حظى الطالب اليتيم المتخلف بعطف المشرفين على الكلية رعاية لظروفه ولتاريخ جده الطويل فى خدمة الكنيسة فمنحته الكلية درجة التخرج بصفة استثنائية أطلقوا عليها اسم « انعام خاص » للدلالة على أنها منحة وليست استحقاقاً عن جدارة .

وليس يوناثان سويفت نسيج وحده فى فشله الدراسى الواضح بين المشاهير فى العالم ، بل ولا بين العلمين الشهيرين من ذوى قرباه من جهة أمه ومن جهة أبيه على السواء . فعلى هذه الصفة كان من قبل قريب جدته لأبيه — أو على التحقيق ابن خال أبيه — الشاعر المسرحى العظيم درايدن ، وقريب أمه الشاعر الكبير أيضاً هريك الذى خلدت قصائده المشهورة باسم « هرايدز » . ولكن ليس معنى هذا التخلف الدراسى أنه كان فتى سقيم العقل كليل الذهن ثقيل الفهم . فقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن مواهبه وملكاته الفردية كانت توجه اهتماماته العقلية وجهة تبعدها عن مجال تلك المواد الدراسية الجافة التى لا تسيغها نفسه ولا يستطيع أن يحمل ذهنه المتوقد على الاستجابة لها متقيداً بحدودها الصارمة

المتزمتة . وهو من فطرت نفسه على اللمحات والشطحات وكتب له فى ضمير الغيب أن يصبح أعظم أعلام الأدب الساخر وأنبغ الهجائين فى تاريخ الأدب الإنجليزى حتى اليوم .

ويضاف بلا شك إلى هذا السبب الفطرى سبب آخر أعلنه سويفت صراحة ، ألا وهو حزنه وضيقه بحياته فى تلك المرحلة بسبب ما كان يلقاه من سوء معاملة أقاربه له وهو واقع تحت نير الحاجة إليهم . ويبدو أن عمه جدوين كان فظاً غليظ القلب استطاع أن يجعل خبز الصدقة الذى يبذله له شديد المرارة كأنما هو معجون بالصاب والعلقم .

وفى سنة ١٦٨٨ مات جدوين سويفت ، وعمر يوناثان يومئذ إحدى وعشرون سنة ، ولم يتر لكلابن أخيه ميراثاً يعتمد عليه فى حياته لأنه كان قد انقلب من الثراء إلى الاعسار الشديد والافلاس قبيل وفاته ، فلم يخلف وراءه شيئاً سوى الديون .

وبعد ذلك بمدة وجيزة توجه يوناثان إلى والدته فى لايسستر ليبحث معها أمر مستقبله . وفى السنة التالية حصلت له أسرة أمه على عمل متواضع لدى رجل واسع الثراء كبير الجاه من ذوى قرابتها هو السير وليم تمبل فكان كاتب اليد أو النساخ الملحق بحاشيته وعاش فى داره وتحت كنفه فى موربارك متمتعاً بشىء كثير من الرعاية لأن زوجة السير وليم تمبل كانت وثيقة الصلة بأسرة أمه وتكن لها مودة خاصة . وتدرج فى اكتساب الخبرة بالعمل وبالحياة وبالمجتمع حتى صار مخدومه يؤثره بصحبته ولا يملى رسائله على أحد سواه ، ويعهد إليه أحياناً بكتابة النبذ والمقالات .

وفى قصر مخدومه فى موربارك والأرباض المحيطة به التقى بالملك وليم الثالث ذات مرة ، فالسير وليم تمبل كان من رجالات السياسة المعدودين . وبعد ذلك كلفه مخدومه برسالة شفوية فى أمر من أمور السياسة لدى الملك فانبرى سويفت لهذه المهمة وكله ثقة بنجاحه فى إقناع الملك بذلك الاصلاح البرلمانى المنشود . ولكنه عاد من هناك — على حد تعبيره — « وقد تلقى أول جرعة دواء شفته من غروره ! » .

وبمناسبة هذا الغرور نذكر أن هذا العبقرى الشاب كان شديد الاعتداد بنفسه مدركاً حقيقة قدره وعظم موهبته ، ولم تزده ظروف طفولته اليتيمة ونشأته فى كنف الحاجة ومذلتها إلا فرط حساسية ضاعفت من كبريائه ونقمته على ظروف الحياة التى تسود العاطلين من المواهب وتخفض من أغدقت عليهم الطبيعة هباتها . ففى صدره على الدوام مرجل يغلى بالاستياء من وضعه فى هـــذا الدرك الدون من المنــاصب ، خاضعاً لمن لو أنصف القدر لكانوا دونه بمراحل .

ونجد صدى لمرارته الشديدة من هذه الناحية فى رسالته الشهيرة باسم « توجيهات إلى الخدم » التى نشرت بعد وفاته :

« تجنب أن تعلو بك السن فى منصب الوصيف ، فهو ذروة المهانة . ولذا أنصحك إن وجدت السنين تمر بغير أمل فى الحصول على منصب فى البلاط أو تولى قيادة فى الجيش أو عمل من أعمال الجباية وإدارة القصور والمزارع (وأعمال الجباية وإدارة القصور والمزارع تنفرد دون سابقاتها بضرورة الإلمام بالقراءة والكتابة !) أو من غير أن تسنح لك فرصة للفرار مع ابنة مخدومك أو ابنة أخته أو ابنة أخيه ، فخــير ما تصنعه أن تخلع الطاعة على الفور وتحترف قطع الطريق ، فقطع الطريق هو العمل الشريف الوحيد الباقى أمامك إن سدت فى وجهك تلك السبل . وفيه ستلتقى بكثيرين من رفاقك القدامى وتعيش حياة قصيرة مرحة ثم تغادر الدنيا بصورة مرموقة مشرفة ! » .

وقطع الطريق إنما هو كناية عن طريقة سويفت فى الحصول على الاستقلال بأى ثمن ، فلا يكون تابعاً خاضعاً لإنسان فى عمله ومعاشه ومكانته . وكان طموحه

فى البداية يزهده فى خدمة الكنيسة وطمع فى عمل من أعمال الدولة أو البلاط أو الجيش ، وذهب إلى بيت السير وليم تمبل على أمل أن يبقى هناك برهة وجيزة ريثما يهيئ له منصباً يشق منه طريقه إلى المعالى . بيد أنه شعر بمرور الوقت أن مخدومه فطن إلى كفاءته ومواهبه فلم يعد متعجلا خروجه من خدمته إلى عمل من أعمال الدولة وبدأ يوناثان سويفت يفكر فى الكنيسة باعتبارها عملا مستقلا كريماً على كل حال ، ولئن لم يكن أفضل الأعمال لشاب طموح فهو أفضل من مكان التابع .

وفى سنة ١٦٩٤ — أى وهو فى الثامنة والعشرين تقريباً من عمره — عاد يوناثان سويفت إلى أيرلنده ورسم كاهناً لبيعة صغيرة قرب بلفاست بمخصصات تبلغ مائة جنيه فى السنة . إلا أنه لم يسغ حياة العزلة الجافة قسيساً مغموراً وسط رعية مغمورين معظمهم من الأميين ، فلما أرسل إليه السير وليم تمبل يناشده العودة ويعده بمكانة أرفع وتقديمه لأقطاب السياسة والحكم عاد إلى قصره فى موربارك فى مايو سنة ١٦٩٦ حيث انصرف إلى توسيع دائرة اطلاعه وتوثيق معرفته برجال زمنه وتيارات السياسة ومشكلات الحكم والمجتمع إلى أن مات السير وليم تمبل بعد ذلك بثلاث سنين من غير أن يحقق له شيئاً مما مناه به بصورة واضحة ، فعاد يوناثان سويفت إلى أيرلنده وقبل العمل كاهناً خاصاً لدى اللورد بيركلى فى قلعة دبلن ، ولكن أهم واجباته فى الواقع كانت قراءة الكتب المختارة المحترمة لليدى بيركلى . ولا سيما الكتاب الأثير لديها بعنوان « التأملات » لمؤلفه روبرت بويل . وذات مساء أقدم يوناثان سويفت على عملية غش بارع ، فبدلا من قراءة صفحات هـــذه التأملات قرأ لها إلى ختامها تأملات أخرى من غير أن تفطن إلى الفرق بينهما . وكانت قراءته من عمل فرغ أخيراً من تأليفه مقلداً ذلك الكاتب تقليداً محكماً مع جنوح مفرط إلى السخرية والتهكم ، وقد جعل عنوانه « تأملات فى مكنسة » !

وفى فبراير سنة ١٧٠٠ منحه اللورد بيركلى أبراشية يتولى كهنتها مع إيراد حبوس ذات قيمة يصل إلى مائتى جنيه فى السنة . وكان يوناثان سويفت قد تعرف بشقيقة أحد زملاء الدراسة وهى جين وارنج المعروفة باسم فارينا منذ خمس سنين وتعلقت به ، ووجدت فارينا ذلك الدخل كافياً للزواج وألحت عليه فى أمره فأبى ، واختفت من حياته . . .

ويقترن اسمه باسم امرأتين أخريين يشير إليهما بكنيتين : فانيسا وستلا . ويرد ذكر الأخيرة منهما على الخصوص فى مواضع كثيرة من آثار قلمه مطنباً حسنها إطناباً يدل على شديد تعلقه بها ، ولا يدرى أحد على التحقيق حقيقة صلاته الحميمة بثلاثتهن . فقد ظلت هذه العلاقات لغزاً تحف به الظنون حتى اليوم .

وإلى فترة إقامته فى قلعة اللورد بيركلى يرجع تاريخ محاولات سويفت الأولى فى السخرية والهجاء ، وأشهرها معركة الكتب وقصة طست . وقد تداولتهما الأيدى مخطوطتين سبع سنين إلى أن قدر لها أن تجدا طريقهما إلى المطبعة فعرف أمرهما فى العالم العريض . وهذان العملان فيهما سخرية بارعة لاذعة بالانقسامات والأحزاب الفكرية والاعتقادية الشائعة فى زمنه . وحكاية الطست كناية عن طست على صورة نصف برميل يقال إن البحارة كانوا يلقونه للحيتان كى تتلهى بتقاذفه عن مهاجمة السفينة التى يركبونها .

وفى سنة ١٧٠١ دخل سويفت ميدان السيـــاسة بمناسبة الانشقاق الذى حدث بين اللوردات من أعضاء حزب الأحرار . فنشر كتاباً غفلا من التوقيع يقطر سخرية تلقفه الناس وبلغ من رواجه ونجاحه أن الكثيرين من المشاهير نسبوا تأليفه لأنفسهم ، فاضطر يوناثان سويفت إلى إعلان الحقيقة . وبعد ذلك مباشرة نشر مخطوطيه القديمين « معركة بين الكتب » و « حكاية طست » فتبوأ سويفت على الفور مكانة رفيعة بين

الصف الأول من أدباء زمنه وصار الصديق والجليس المخالط لعدد من أكبر النبلاء .

وفى سنة ١٧٠٧ قدم سويفت إلى لندن بتكليف رسمى لمطالبة الملكة آن ببعض الحقوق الدستورية لأهل أيرلنده . وفى تلك الفترة خلت أسقفية ووتر فورد فانتظر أن يحظى بها ، ولكن أمله خاب بتعيين غيره . وفى السنة التالية تكرر استياؤه بمناسبة خلو أسقفية كورك ، وفشلت مهمته السياسية أيضاً وفسدت علاقته بزعماء الأحرار فعاد حانقاً إلى أيرلنده وربط نفسه بعجلة حزب المحافظين وأسهم فى تحرير صحيفتهم . وتوالت كتيباته فى أمهات مسائل العصر السياسية على الصعيد الداخلى والدولى وأصبح أكبر كاتب سياسى غير منازع . ولم يشق له غبار فى قدرته على التهكم اللاذع والتصوير الساخر وإبراز المثالب فانتشرت هجائياته وأثارت أعظم الاهتمام . وبلغ نفوذه أوجه فيما بين سنتى ١٧١٠ و ١٧١٤ بحيث كان أكبر الأقطاب يترضونه ويخطبون وده .

ومما يذكر له أنه لم يستغل هذا النفوذ لاقتناء منفعة مادية أو الحصول على منح أو مناصب تدر دخلا ، بل عمل على تحسين أحوال رجال الأدب من غير نظر إلى اختلافهم معه فى الرأى . وجمع اشتراكات كثيرة للشاعر بوب كى يطبع ترجمته الشهيرة لهوميروس ، وأسدى خدمات لا تنسى إلى كونجريف وبارنل وشتيل

وأظهر المحافظون تلكؤاً فى تبوئ سويفت المكانة الجديرة به فى الكهنوت ، كما تلكأ الأحرار من قبل . فعيل صبره ووجه إلى المحافظين انذاراً أخيراً فى سنة ١٧١٣ وإلا عاد أدراجه إلى أيرلندة . ولكنهم ضنوا عليه برتبة الأسقف الكاملة ودبروا له منصب نائب الأسقف فى أبراشية القديس باتريك بدبلن فى يونيه سنة ١٧١٣ .

والواقع أن يوناثان سويفت لم يكن أصلح رجال زمنه بمزاجه وسيرته وآثار قلمه لتولى مناصب الكهانة الرفيعة من أسقف ونائب أسقف . ولكنه فيما عدا شروط التقوى رجل لا غبار عليه لم يتورط فى خساسة ولم يقترف دنية فى حق رجل أو امرأة . ولم يكتب سطراً واحداً يخالف ضميره . ولكن لغته الصريحة صراحة مسرفة فى « حكاية طست » أخذت عليه وعدت غير لائقة بأمير من أمراء الكنيسة .

وبعد سنة من ظفره بمنصبه ماتت الملكة آن فانقضى كل أمل له فى رتبة الأسقف الكاملة ، وإن كان الأيرلنديون قد اعتبروه زعيمهم الذى تتمثل فيه ثقتهم للدفاع عن حقوقهم ومطالبة الحكومة الإنجليزية بها . وكانت منزلته بينهم تقرب من القداسة وتعلو فوق منزلة الأساقفة أجمعين ، ولا سيما بين العامة والأميين من مواطنيه .

وفى هدوء كاتدرائيته العريقة شرع سويفت فى أعمال أدبية أهمها وأوسعها انتشاراً إلى اليوم رحلات جليفر الشهيرة التى كانت أول عمل أدبى يتقاضى عنه من الناشر أجراً ، فقد كان قبل ذلك يرفض أن يكتب بأجر . وكان ذلك فى سنة ١٧٢٦ .

واستمر سويفت يكتب بطريقته الساخرة ، ولعل أشهر أعماله المتأخرة « توجيهات إلى الخدم » التى كتبها سنة ١٧٣٧ .

وفى السنوات الأخيرة من حياته اعتلت صحته كثيراً . وامتد المرض إليه من أعلى إلى أسفل على نحو ما تشيخ الشجرة العجوز . فتدرج اعتلال مزاجه حتى صار نوعاً من الخبل فى سنة ١٧٣٨ ، ثم وضع تحت الوصاية محجوراً عليه سنة ١٧٤١ إلى أن مات فى سن السابعة والسبعين فى ١٩ أكتوبر سنة ١٧٤٥ ودفن فى كاتدرائيته إلى جوار « ستلا » .

ولعل أحكم تلخيص للأثر الذى أحدثته وفاته عقب مرضه العقلى والبدنى الطويل كلمة ثاكرى : « عبقرى جبار تهاوى وتهدم . لا يملك المرء حين يفكر

فى عظمته وجبروته إلا أن يشبه سقوطه وانهياره بانهيار امبراطورية هائلة » .

٢ — رحلات جليفر

والطابع العام لأدب يوناثان سويفت هو تلك الحرية الشديدة غير المألوفة فى زمنه فى استخدام فكره النافذ وجرأته على جميع الأوضاع والقيم واخضاعها للنقد العقلى . حتى لقد قيل إن نقده العقلى المحض للقيم الراسخة والسائدة تهدد مبررات الحياة نفسها بعطب شديد ، والواقع أن إطلاق سلطان العقل كان عاطفته الوحيدة التى يتحمس لها حماسة صادقة عنيفة ويغضب غضباً جائحاً لكل حجر على هذه الحرية العقلية التى هى أعظم وأثمن ما يمتلكه البشر فى مواجهة الكون وغوامضه . ومن هذا المنبع تفجرت طاقته الهائلة على السخرية بكل ما يخالف العقل والبداهة السديدة ، ويحارب هـــذه الرواسب والقيم المنافية للعقل بلد شديد يخيل للناس فى أحيان كثيرة أنه يقطر مرارة . ولهذا السبب أيضاً لا يوجه اهتمامه الأدبى والفكرى لمظاهر الحياة البشرية السوية ، بل لموطن التعفن والخلل فى قدرة جبارة على التشريح والتجريح والهجاء .

وخلاصة جهاد يوناثان سويفت الأدبى والفكرى أنه طالب حقيقة شديد الحماسة واللهفة ، مصر على تدمير سائر التمويهات الزائفة المضللة للحقيقة ، متجلداً فى سخط لجميع الويلات التى تصيبه فى هذه الحرب الضروس التى شنها شاملة فى جميع المجالات ضد سائر أنواع التضليل والتحيز والتدليس . وهو يعتبر ذلك الجهاد الأمثل فى ســبيل شرف الإنسان باعتباره كائناً عاقلا لا يهدر شرفه شىء كما يهدره كل تكبيل لعقله وكل انحراف فى سلوكه عن سلطان العقل وكل تقييد لحرية ذلك السلطان العقلى الشامخ .

لقد كان قطباً من أقطاب الكنيسة الإنجيلية . وشهد فى زمنه ما بين الطوائف المنشقة من خلافات أصلية فى الرأى والاعتقاد . وشهد ما بين صفوف الإنجيليين أنفسهم من خلافات حول المذهب . ولم يتردد يوناثان سويفت فى اختيار موقف محدد من هــذه الخلافات . وكان دستوره فى مواطن اختلاف الرأى فيما يتصل بالعقيدة أن على العاقل الحكيم أن يتبع عقيدة الأغلبية من مواطنيه على نحو ما يخضع ويطيع بإخلاص وصدق دستور الحكم والسياسة فى بلاده . وكانت رسائله التى كتبها فى الخلافات الدينية تحمل هذا الاتجاه فهاجم الكثلكة بشدة . وهاجم التعصب لدى الطوائف المختلفة عموماً مطالباً بالاعتدال وعدم مصادرة رأى المخالفين . ولو أدى ذلك التسامح إلى شىء يسير من الرياء ، فالرياء فى هذه الحالة أفضل من نقيضيه : التعصب والإلحاد المستهين !

ولا يسعنا إلا أن نلاحظ تقارباً شديداً بين دعوة هذا الأسقف إلى التسامح والاعتدال وبين دعــوة الفيلسوف الفرنسى الساخر فولتير إلىالتسامح والاعتدال فى أمور العقيدة أيضاً .

ولم يتردد يوناثان سويفت فى السخرية على أساس عقلى على الصورة العنصرية بما تنطوى عليه أحوال المتصوفين من اختلال نفسانى مرضى ، وذلك عــلى الخصوص فى رسالته عن الفعل الميكانيكى للنفس . وقد ذهب فى هذه الرسالة فى التشريح الدقيق إلى أبعد مدى حينما حلل بصرامة مذهلة حالات معينة من النشوة الصوفية وطابق بينها مطابقة دقيقة وبين حالات من الهياج الجنسى والشهوات البدنية المحض . ويشعر القارئ من لهجة سويفت فى إثبات هذا التطابق أنه ينطوى على سرور خفى بهذا الانتقام من جانب نصير العقل البشرى الحر ضد الأكاذيب الموروثة التى يتلقاها الناس بالتقديس من غير مناقشة أو تمحيص .

وفى المجال الفكرى المحض نجد « المعركة بين الكتب » حرباً شعواء يشنها ضد السطحية وضيق الأفق والتعمق الزائف فى الدراسة والمغالطة . وضد موجة

الجيل الجديد من الأدعياء الذين يزعمون التصدى لإنشاء أدب عصرى مع الجهل أو التجاهل الوقح بأعمال العمالقة الأقدمين أساتذة الثقافة والأدب والفكر الخالدين : فهؤلاء وهؤلاء حشرات طفيلية تفسد جو الأدب والفكر على أنحاء مختلفة كلها هزيل فاسد ضار . فلا بد للفكر الحقيقى والأدب الحقيقى من ذوق سليم وعقل يقظ وعلم عميق واطلاع واسع وفهم حى متجدد : فلا التكلف صالح للبقاء فى أثواب الجمود التقليدى ولا الجهل صالح للبقاء بوقاحته المستحدثة !

وفى كل مجال من هذه المجالات يتخذ الكتاب الواحد من كتب يوناثان سويفت هدفاً معيناً وموضوعاً محدداً . ولا يخرج على هذه القاعدة إلا فى كتاب واحد هو بيت القصيد من هذه السطور ألا وهو « رحلات جليفر » ففيه يتسع هدف سويفت اتساعاً غير مألوف لديه . فهو دراسة السلوك البشرى من طرفيه المتناقضين ضآلة وضخامة . وتبدو فيه فلسفة سويفت متداخلة فى نسيج العمل الأدبى مع شىء كثير من السخرية التى لا تبتعد عن صميم الواقع وهى تحلق فى عالم الأسطورة والخرافة ، متناولا بالنقد والهجاء السلوك الاقتصادى والتفكير العلمى ومناهج البحث عن الحقيقة والتقدم الآلى وطموح البشر بجميع أنواعه .

ولا تنم رحلات جليفر على تقدير كبير من جانب سويفت لحركة التقدم العلمى الحديث على نحو ما كانت فى زمنه . فإذا به يستهزئ بنظرية نيوتن فى الجاذبية وبما وصل إليه بنتل من استنتاجات . فهذه كلها فى نظره فروض وألاعيب يتخذها الفكر ثم لا تلبث جدتها أن تبلى وتنقضى موجة « موضتها » لتحل موجة أخرى محلها . ولعل هذه هى الناحية الوحيدة فى كتابات سويفت التى جنح فيها إلى الشكوكية والإنكار .

ومن أطرف عناصر رحلات جليفر بلا شك تصويره الساخر لعالم السياسة والملأ الأعلى من رجال السلطة والحكم وسيداته ، واللوالب الخفية الحقيرة غالباً التى تختفى وراء مظاهر الأبهة والشعارات الطنانة والمعارك السياسية الجادة . فإذا به يعرى أمجاد ذوى البأس والسلطان من طيالسها الخادعة ليعرضها لأنظار الناس هزيلة غير جديرة إلا بالرثاء والازدراء .

ولا يعفى من مبضعه الحاد وأنواره الكاشفة الفاضحة النظام الملكى عموماً فى كل زمان ومكان ، وما يكتنفه من حياة الفساد والنفاق والدسائس فى البلاط ، وخيوط خفية تتصل فى نهايتها بأحط الشهوات وأرخصها متمثلة فى المحظيات والعشيقات ، وفى المحظيين والعشاق المقربين إلى هؤلاء العشيقات . وإلى وسائل الرشوة والتحاسد والصغار فى الخصومة . وكيف يكتسى كل هذا الفساد الوبيل أمام الشعب المخدوع ببهارج براقة من المبادئ والخطب الرنانة فى المحافل ومنتديات الأحزاب ومجالس النواب !

وكى يصل يوناثان سويفت إلى هدفه هذا العريض ينقلنا بين عالمين متناقضين ، عالم الأقزام وعالم العمالقة ؛ وبهذا التغيير الهائل فى « مستوى النظر » يتغير «المنظور» تغيراً شاملا . وهو إذ يبدأ بعالم الأقزام يمكننا من أن نرى أنفسنا فرادى وجماعات وقد تجردت التقاليد المرعية من قداستها المكتسبة فإذا هى على حقيقتها وهؤلاء الأقزام يمارسونها، شىء سخيف مفرط فى السخف نستغرق منه فى الضحك ، وهو بعينه ما درجنا عليه فى حياتنا العادية ناظرين إليه بما يناقض الاستنكار والاستهجان !

وحين ينتقل بنا إلى دنيا العمالقة يكشف لنا عن همجيتنا ووحشيتنا ، كما يكشف لنا أيضاً عن ضآلتنا وغرورنا ، فيخرج المرء من الرحلتين وقد امتلأت نفسه بتفاهة شأن الإنسان وتفاهة كل تلك النظم التى يستهول أمرها ويتناحر حولها . وهو شعور يملأ الجوانح أسى وإشفاقاً وأسفاً .

ويضع جليفر أمام أنظار الإنسان القدوة الجديرة به لا فى عالم من أقزام البشر ولا فى عالم من عمالقتهم ، بل فى أرض « الخيول الفيلسوفة » حيث نرى حياة الحيوان

مثلا يحتذى للكائنات العاقلة المعقولة ، فهناك نجد السلوك السوى الذى نشدناه عبثاً فى ممالك البشر على اختلاف أنواعها . فهذه الدواب على أربع تنظر إلى جنسنا البشرى باحتقار وترى تصرفاته غير مفهومة ولا معقولة لأنها تصرفات خالية من الحكمة وليست لها غايات سديدة من مطالب الحياة الطبيعية . فحضارتنا البراقة بكل ما فيها من تقدم شيء جنونى لا تفقهه هذه الكائنات الحكيمة .

وبذلك تصل سيمفونية يوناثان سويفت عن البشر فى هذه الإلياذة الخرافية إلى نغمة الختام التى تفيض بإحساس واحد يطبق علينا : التشاؤم . التشاؤم من روح الإنسان . ففى هذه الروح يكمن الشر الحقيقى . أما الحيوان فلا يعرف الشر الأخلاقى لأنه برئ من هذه الصفة : الروح .

ولم يفت الكثيرين من المعلقين والنقاد ترجيح صدور هذا التشاؤم المطبق عن جسم عليل ونفس أسقمتها الأمراض وحزت فيها صدمات متلاحقة من الفشل وهبوط الآمال . وما أكثر ما تخيم أبخرة المرة السوداء على العقل والأعصاب فتسلمها إلى الحدة والاختلال مع نبوغ وتوقد . وفى حبائل الخبل العقلى قضى هذا العبقرى أواخر حياته الممرورة . ولكن من هذه الأدخنة السوداء القاتمة يتألق وهج العبقرية خاطفاً للأبصار ، خالباً للألباب . ومهما خالفناه فلن يسعنا إلا أن نعجب به .

٣ — خلاصة الرحلات

يصرح يوناثان سويفت بأن غايته القصوى من كتابة رحلات جليفر فى العالمين الأكبر والأصغر وممالك شتى فى آفاق الأرض « أن يوبخ الناس ويقرعهم لا أن يسليهم ويرفه عنهم ! » ولكن هذا العبقرى لم يبلغ غايته هذه من كتابه هذا . فقد شاء ما فطر عليه البشر من أنانية وقصر نظر أن يقلب هذه الغاية ، وأبى الناس منذ نشر الكتاب فى سنة ١٧٢٦ حتى اليوم إلا أن يجدوا فيه مصدراً للتسلية والترفيه لا يقفان عند حد ، ولم يلتفتوا إلى ما فى الكتاب من زجر وتقريع وتعنيف !

وظلت الأجيال من الكبار والصغار تقبل على رحلات جليفر بروح الاستمتاع على مستويات مختلفة ، أما الدرس والاعتبار فلم يغيرا من طبيعتهم كثيراً ولا قليلا .

ويبدأ الكتاب على لسان جليفر فيروى طفولته ونشأته واحترافه الطب والجراحة آخر الأمر وركوبه البحر على متن إحدى السفن طبيباً لركابها فى رحلاتها إلى المشرق . وفى سنة ١٦٩٩ كانت السفينة تمخر البحار الجنوبية عندما ارتطمت بصخرة فانشقت . وظل جليفر يسبح على غير هدى ، ودفعه المد واتجاه الريح حتى مست قدمه الأرض فى ظلمة الليل ، وارتمى على الشاطئ مجهداً واستغرقه النوم حتى الصباح . وحين أيقظته حرارة الشمس هم بالنهوض فإذا هو مقيد إلى الأرض . وهم بتحريك رأسه فوجدها مشدودة الوثاق أيضاً . وأحس شيئاً يتحرك بلطف فوق ساقه ثم فوق صدره ، فحرك عينيه إلى أسفل ، ولم يلبث أن تبين مخلوقاً بشرياً لا يبلغ ارتفاعه ست بوصات (١٥ سنتيمتراً) وفى يده قوس ونشاب ، ثم شعر بعدد آخر من نظرائه يزحفون فى أثره ، وبحركة عنيفة تمكن جليفر من تحطيم قيود ذراعه الأيسر ، ولكن هذه المخلوقات الصغيرة تمكنت من الفرار قبل أن يقبض عليها فى راحة يده . وأحس بمئات من السهام ترشق فى يده اليسرى فكان لها وقع كوخز الإبر . وظل يئن أسى وألماً إلى أن أقدم بعضهم على قطع الحبال التى تقيد حركة رأسه ، وعندئذ استدار قليلا وأبصر شخصاً يبدو زعيم القوم يلقى عليه حديثاً طويلا لم يفهم منه شيئاً . وحاول جليفر بالإشارة أن يفهمه مبلغ ما يحسه من الجوع ، ففهم الزعيم مراده وسرعان ما جئ بسلالم كثيرة ألقيت على جانبيه وصعدها مئات من هؤلاء الأقزام محملين بالطعام والشراب ، فيصبون سلالهم ودلاءهم وقربهم فى فمه !

ويبدو أن رسالة سريعة وصلت امبراطورهم بمجرد اكتشافه نائماً على الشاطئ ، واجتمع مجلس البلاط وقرر العناية بتغذيته وتأمين سلامته ونقله إلى العاصمة . ولهذا الغرض مزجوا الخمر التي صبوها في فمه بمخدر فاستغرقه النوم مرة أخرى . ولاحظ جليفر أن هؤلاء القوم وصلوا إلى مستوى رفيع من الإتقان الآلي فاستطاعوا بواسطة الحبال والبكر أن يرفعوه فوق آلة ضخمة في زمن لا يزيد على ثلاث ساعات . وهذه الآلة معدة لنقل الأشجار الكبيرة وغيرها من الأحمال الثقال . وشد إلى المركبة العجيبة ألفا وخمسمائة جواد من أضخم جيادهم . ويبلغ ارتفاع كل منها نحو أربع بوصات ونصف (١٠ سنتيمترات تقريباً) وتولت جره إلى العاصمة حيث حبسوه مقيداً بالسلاسل . وحضر الامبراطور لمشاهدته وعقد البلاط جلسات كثيرة احتدمت فيها المناقشات حول خطورة حجمه وما يترتب على تحطيمه لأغلاله . واحتمالات المجاعة التي قد تنشأ عن الاحتفاظ به . بيد أن وداعة جليفر طمأنت بالهم . وتوثقت الألفة بينه وبين الامبراطور . وأخذ يدرس أحوال هذا الشعب السياسية والاختلافات التافهة بين مبادئها . فهناك مثلا خلاف حول ارتفاع كعب الحذاء ! وهناك أيضاً عداء بين جزيرة ليليبوت هذه وجزيرة بليفوسكو التي أعدت أسطولا للغزو . وأراد الامبراطور أن يستغل ضخامة جليفر في سحق أعدائه فأطلقه وخاض ماء البحر الذي وصل إلى ركبتيه ثم شرع يحطم أسطول الأعداء أو يأسر سفنهم ويعود بها إلى حلفائه . وطمع الامبراطور في استخدام جليفر لغزو هؤلاء الأعداء واحتلال بلادهم واستعباد أهلها ، فرفض جليفر أن يكون أداة لهذا الغرض الهمجي . فغضب الامبراطور وأخذ يدبر المكائد للانتقام منه . وفطن جليفر إلى الحقيقة فقرر الرحيل إلى جزيرة الأعداء ومن هناك أعدوا له الوسائل للإقلاع عائداً إلى بلاده وأعطوه ألوفاً من أغنامهم وأبقارهم التي يشبه حجمها النمل الكبير والصراصير . وأخذ معه أنواعاً من الطرائف في دقة حجمها وخصوصاً من الكائنات الحية والمصنوعات المستخدمة في الحياة اليومية والفاكهة على أمل أن يربي سلالات من الأغنام والماشية والخيل في قريته . وأصر الملك على تفتيش جيوبه بدقة شديدة خشية أن يخفي فيها بعض رعاياه !

وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام لمح على البعد شراع سفينة انجليزية فظل يصرخ ويلوح . وأخيراً أبصره الربان وانتشله بعد أن وضع جليفر في جيوبه جميع أبقاره وأغنامه . ولكن فيران السفينة الإنجليزية كانت تفترس أبقاره .

وبعد إقامة وجيزة في انجلترا مع زوجته وأسرته عاوده الشوق إلى المغامرات والأسفار فاستقل سفينة تجارية كبيرة متجهة إلى الشرق أيضاً . وبعد أن اجتازت السفينة مضيق مدغشقر هاجمتها الرياح الموسمية وضلت طريقها ونضب الماء العذب فنزل مع بعض البحارة إلى أقرب جزيرة للبحث عن الماء . وظل يسير مقدار ميل على غير جدوى ثم هم بالعودة فأبصر رفاقه البحارة في زورقهم يجذفون بهمة عائدين إلى السفينة ومن ورائهم مخلوق هائل يخوض الماء إلى ركبتيه في أثرهم .

وهكذا وقع جليفر في أسر أهالي بروبدنجناج العمالقة الذين اجتمعوا حوله يتلهون به ويدفعونه بين السبابة والإبهام ليتأملوه عن قرب وكأنه نوع غريب من الحشرات .

واحتفظ به صاحب الضيعة الذي أسره وفرحت زوجته بهذا المخلوق الصغير بعد أن صرخت لأول وهلة كما تصرخ سائر النساء لمنظر شيء يحسبنه فأراً ! وزاد افتتان الزوجة به حين رأته يحسن الانحناء ويعاملها بآداب المجتمع الراقي ويستخدم الشوكة والسكين اللذين كان يحملهما في جيبه . ولم يجد جليفر عنتاً إلا من ابن ذلك المزارع وهو غلام في العاشرة مدلل يعامل الحيوانات بقسوة . أما طفله الصغير الذي لا يتجاوز عمره العام

فكان يعتبره دميته المفضلة . وفى الليل نام على وسادة صغيرة فى فراش الزوجين الضخم . وهاجمه فأران فى حجم كلاب الصيد عندنا ، ولولا براعته فى استخدام خنجره بحيث جرح أحدهما فلاذت الفيران بالفرار لنهشته بسهولة .

وفكر المزارع فى استغلال جليفر تجارياً ، فراح يطوف به الموالد والقرى والمدن ويجتمع الناس لمشاهدته فيعرض عليهم ألعابه ، حتى جمع الرجل ثروة كبيرة ، وهزل جسم جليفر من شدة الإرهاق فباعه الرجل للملكة بألف قطعة ذهبية . وهكذا صار مهرج الملكة القزم واستطاع أن يرى دخائل حياة البلاط عن كثب لسهولة اختفائه تحت الكراسى وخلف الستائر . وقضى هناك ثلاث سنوات . وفى بعض الرحلات التى قام بها البلاط حملته الوصيفة فى صنـــدوق صغير خاص كأقفاص الطيور عندنا . وغفلت عنه الوصيفة على الشاطئ فحمله نسر هو وقفصه ووقعت بين النسور معركة على هذه الفريسة فسقط الصندوق فى البحر وتقاذفه الموج إلى أن انتشلته سفينة انجليزية مارة من هناك فأعادته إلى إنجلترا ، حيث أقسمت زوجته ألا تدعه يركب البحر بعد ذلك . ولكن قبل انقضاء عشرة أيام زاره ربان كبير المقام وظل يغريه حتى قبل العمل طبيباً وجراحاً على سفينته المتجهة إلى جزائر الهند الشرقية . وهكذا بدأت رحلة جليفر الثالثة إلى ممالك كثيرة فى الشرق الأقصى حتى وصل إلى اليابان وأحاط بعادات أهلها وشرائعهم .

أما رحلته الرابعة فهى التى صار فيها رباناً للباخرة . وفى مجاهل البحر ثار عليه البحارة وحبسوه فى قمرته مدة طويلة ثم تركوه على شاطئ جزيرة مجهولة . وسكانها هم « الخيول الفيلسوفة » أو الياهو . وتعرف إلى عاداتهم وأحوال معيشتهم . وحاول آسره أن يعلمه لغتهم . ثم بدأ يلقنه مفهوم الحق والباطل والصواب والخطأ فى نظر هذه السلالة من الخيول الحكيمة ويبدى اعتراضه ورفضه للمفهوم البشرى لهذه المعانى . ثم يتطرق الحوار إلى مناقشة أحوال الحضارة الأوربية وأنظمة الحكم والدستور الإنجليزى وسمات رؤساء الوزارات . ومن خلال هذه المناقشات تبرز حكمة هذه الحيوانات أرجح فى مواطن كثيرة من سلوك البشر المتحضرين فى دول الغرب المتقدمة . . . ويفيض جليفر فى فضائل هذه الحيوانات وأساليبها فى تربية الأحداث والشبان ونظم السياسة والحكم لديها وسائر عاداتهم فى أحوال المعاش المختلفة بما فى ذلك أسلوب البناء وشعائر الدفن . ويطنب فى وصف سعادته بين ظهرانيهم وتقدمه فى المنطق والفضيلة ، إلى أن طلب إليه أن يغادر بلادهم وزودوه للسفر فارتحل حزيناً على فراقهم الذى جاء على كره منه . ولولا ذلك لآثر البقاء .

٤ ـــ نبذ متفرقة من الرحلات

ـــ (فى عاصمة امبراطورية الأقزام « لليبوت » وقد قيدوه بالسلاسل بحيث يستطيع الحركة فى دائرة نصف قطرها ياردتان وبحيث يستطيع الدخول إلى المعبد القديم الذى شدوه إلى بوابته ليتوارى عن الأنظار راقداً على الأرض) .

. . . . وعندما ألفيت نفسى على قدمى نظرت حولى . ولا بد لى أن أعترف بأننى لم أشهد فى حياتى منظراً أمتع للعين مما رأيت عندئذ . فالريف من حولى بدا وكأنه حديقة متصلة الآماد . والحقول المسورة — ومساحة معظمها أربعون قدماً مربعاً — بدت لى كأنها أحواض للزهر فى هذه الحديقة المترامية . وكانت الغابات تتخلل هذه الحقول . وأعلى الأشجار فيها تراءى ارتفاعها نحو سبعة أقدام . ورأيت المدينة عن يسارى كأنها منظر مرسوم لمدينة مما يستخدم على خشبة المسارح .

وكنت أعانى منذ ساعات أشد المعاناة من ضغط ضرورات الطبيعة . وليس فى ذلك ما يدعو للعجب إذ

كان قد انقضى يومان تقريباً على آخر مرة أفرغتِ فيها أمعائى : وتنازعتنى هذه الحاجة الملحة وشدة الخجل أشد التنازع . فكان أفضل حل خطر لى أن أحبو إلى داخل مأواى . وكذلك صنعت ثم أغلقت البوابة خلفى وابتعدت إلى أقصى ما سمحت لى به قيود رجلى ثم خلصت بدنى من ذلك العبء الممض : ولكن هذه كانت المرة الوحيدة التى اقترفت فيها هذه الفعلة المجافية للنظافة . وفى مأمولى أن يمهد لى القارئ السمح العذر فيها وقد أحاط بحالتى ومبلغ ما كنت فيه من الكرب . وبعد هذه المرة ثابرت بمجرد يقظتى فى الصباح على قضاء هذه الحاجة فى الهواء الطلق على أبعد مدى تسمح به قيودى . ولاحظت أنهم كانوا يحرضون على إزالة هذه النفايات على الفور ، ينقلونها فى أضخم عربات النقل لديهم على يد خادمين خصصا لهذه المهمة قبل حضور أحد من الناس لمشاهدتى : : :

* * *

— وما أسرع ما انتشرت أنباء وصولى إلى هذه البلاد فى أرجاء المملكة . فأقبلوا من فجاجها البعيدة فى أعداد هائلة معظمهم من الأثرياء والمتبطلين وأهل الفضول . حتى لقد أوشكت القرى أن تخلو من أهلها . ولا شك أن شئون الفلاحة وإدارة الأعمال وتدبير البيوت كانتِ كلها قمينة أن تتعرض للتعطيل والبوار لولا أن صاحب الجلالة الامبراطورية اتخذ التدبيرات الحازمة بعدد من المراسيم والأوامر الرسمية فى مواجهة هذا الخطر الطارئ . واقتضت إرادته أن يعودجميع من شاهدونى إلى مقارهم ولا يقتربوا بعد ذلك من موضعى أكثر من خمسين ياردة إلا بتصريح خاص من البلاط . ومن هذا المنفذ استطاع وزراء الدولة أن يجمعوا أموالا طائلة عن طريق الرشوة ! : : .

* * *

— وذات صباح بعد انقضاء نحو أسبوعين على حصولى على حريتى حضر إلى مقرى وزير الداخلية وليس فى صحبته إلا خادم واحد ، وأمر عربته أن تنتظر على مسافة بعيدة ثم أعرب عن رغبته فى الاجتماع بى ساعة من الزمن ، فوافقت على الفور رعاية لمقامه ، ولمزاياه الشخصية ، وعرفاناً لخدماته الكثيرة التى أداها لى أثناء نظر التماساتى أمام البلاط .

وعرضت عليه أن أضطجع على الأرض كى نتبادل الحديث ويكون من اليسير عليه عندئذ أن يصل إلى أذنى ، بيد أنه آثر أن يدعنى أرفعه فوق كفى إلى أذنى طول المدة التى استغرقتها محادثاتنا . وبدأ بتهنئتى على نوال حريتى ، وقال إنه يدعى لنفسه بعض الفضل فى ذلك ، إلا أنه يعترف بأننى ما كنت لأحصل على حريتى بهذه السرعة لولا الظروف الراهنة التى تسود البلاط الامبراطورى وقال : « إن أحوالنا تبدو للأجنبى مزدهرة غاية الازدهار . ولكننا فى الحقيقة نعانى من آفتين شديدتى الوطأة ، ألا وهما الانقسام العنيف فى الداخل والخطر المحدق من الخارج متمثلا فى تهديد أقوى أعدائنا بالإقدام على غزونا . أما الانقسام الداخلى فهو قائم على قدم وساق منذ أكثر من سبعين شهراً قمرياً بين الحزبين المتنازعين على السلطان فى هـــذه الامبراطورية ، وهما حزب الكعوب العالية وحزب الكعوب المنخفضة . . . ! » .

* * *

— (فى أسر مزارع بجزيرة العمالقة « بروبدنجتاج» وقد أثرى الرجل من عرضه على أهل الفضول ليقوم بألعابه بلا انقطاع تقريباً متنقلا بين المدن والقرى إلى أن ساءت صحته) .

: : . وفى هذه الأسابيع القليلة من الجهد المضنى المتواصل تغيرت صحتى تغيراً جسيما ، فكلما جنى سيدى المال من وراء عملى الشاق ازداد نهمه وجشعه حتى صرت أشبه بهيكل عظمى . ولاحظ المزارع ذلك فاعتقد أنى لا شك هالك عن قريب ، وقرر أن يفيد منى للمرة الأخيرة أكبر فائدة ممكنة . وفيما هو يفكر

ويقدر ويدبر الأمر بينه وبين نفسه أقبل ياور من ياوران القصر موفداً من البلاط ليبلغ سيدى أمراً عالياً بحملى على الفور إلى هناك كى تتفكه بمشاهدتى الملكة وسيدات البلاط . وكانت طائفة من أولئك السيدات قد شاهدننى من قبل ورفعن إلى جلالتها أنباء عجيبة عن جمالى وتهذيب سلوكى وحسن فطنتى .

وبلغ سرور جلالتها ومن حولها غايته لما أبديته من سلوك حميد ، فقد ركعت على ركبتى والتمست شرف تقبيل قدمها الامبراطورية بيد أن هذه الملكة الرفيعة القدر الكريمة الخلق مدت نحوى خنصر يدها (بعد أن رفعونى فوق مائدة) فعانقت ذلك الخنصر بذراعى كليهما ووضعت طرف البنان بأقصى احترام على شفتى ووجهت إلى جلالتها أسئلة عامة عن بلادى وأسفارى ، فأجبت عن هذه الأسئلة بأقصى وضوح وأوجز كلمات فسألتنى أيسرنى أن أعيش فى البلاط ، فانحنيت حتى مسست ظهر المائدة التى أقف فوقها وأجبتها بخضوع إننى عبد رق لسيدى ، ولو كان أمرى بيدى لأزهانى أن أقف حياتى على خدمة جلالتها . فسألت مولاى أيحب أن يبيعنى بثمن طيب . وكان يخشى ألا أعيش شهراً فأظهر استعداده للنزول عنى ، طالباً ألف قطعة ذهبية مقابل ذلك ، فأديت إليه فى التو واللحظة . وكل قطعة منها فى ضخامة حجر الرحى ، تمشياً مع نسبة التفاوت فى الحجوم بين كل شىء هناك وكل شىء فى أوربا .

* * *

ـــ (فى دولة الخيول الفيلسوفة وقد شرح جليفر لسيده أنظمة الحكم فى أوربا وأحوال السياسة والدستور الإنجليزى الذى يعتبر مفخرة الإنجليز . وعندئذ جرى ذكر رئيس الوزراء فى انجلترا فسأله سيده ماذا يعنى بذلك) .

. . . فقلت له إن كبير وزراء الدولة مخلوق مبرأ من الفرح والحزن ، ومن الحب والبغض ، ومن السفقة والغضب . فهو لا يصدر عن عاطفة بشرية فى حياته وعمله سوى شهوة عارمة فى إحراز الثراء والسلطان والألقاب . ويستخدم ألفاظه لشتى الأغراض اللهم إلا لغرض التعبير عن رأيه الحقيقى . وهو لذلك لا يقول الصدق مطلقاً إلا فى حالة واحدة ؛ ألا وهى أن يعلم سلفاً أنك ستأخذ صدقه مأخذ الكذب . وهو لا يكذب مطلقاً إلا وهو يرى إلى أن تأخذ كذبه مأخذ الصدق . ومن يخوض فى حقهم من وراء ظهورهم بأسوأ المثالب هم أحظى الناس لديه ، ومتى شرع فى امتداحك أمام الناس أو فى محضرك فثق أنك منذ ذلك اليوم مقضى عليك بالنبذ . وأسوأ ما تستطيع الحصول عليه منه وعد أو كلمة شرف ، ولا سيما أن عزز ذلك بيمين مغلظة . والحصيف العاقل من يدرك قيمة هذه الوعود العذبة فيصون نفسه ويعتزل محيط رئيس الوزراء قاطعاً كل أمل مطمئناً إلى هذا اليأس .

وثمة ثلاث وسائل يمكن أن ينتهجها المرء للارتقاء إلى منصب كبير الوزراء . والوسيلة الأولى أن يعرف كيف يستغل بحصافة زوجته أو ابنته أو أخته . والوسيلة الثانية أن يخون أو يغتاب أو يدس لسلفه . والوسيلة الثالثة أن يبدى همة وغيرة حماسية فى المجتمعات العامة ضد المفاسد التى تسود حياة البلاط . والملك الحصيف حقاً يفضل أن يختار لرئاسة الوزارة من ينتهجون الوسيلة الأخيرة . لأن أولئك المتحمسين فى غيرتهم يتمخضون دائماً عن أشد رؤساء الوزارات خضوعاً وخنوعاً وتفانياً فى تنفيذ مآرب سادتهم وأهوائهم !